فكر النهضة ومشكلات الحضارة

قراءة عامة في مشروع مالك بن نبي

الدكتور يوسف محفوظ
دكتور باحث في حوار الثقافات والحضارات
جامعة ابن طفيل– القنيطرة
المغرب

مقدمة:

إن الناظر في كتاب "**شروط النهضة**" لمالك بن نبي – يجده يعالج – أساسا الشروط التي إن وجدت من يستوعبها فهما وممارسة، تقدرنا على إحياء الإرث التاريخي للأمة، وتمكننا من حمل المشروع الفكري الحضاري، باعتباره مسارا مستنهضا للأمة جامعا لشتاتها، فنجد أن الكتاب مقسم على بابين رئيسيين، يعتبران مدخلا منهجيا في صناعة " **فكرة النهضة** "، فالباب الأول يحمل عنوان: " **الحاضر والتاريخ** "، يصور مشاهد من واقع الأمة على المستوى الفكري والاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي... وذلك من خلال استرجاع الدورة التاريخية في محاولة للبحث عن مكمن الداء، وبؤر الفساد، وأسباب الانحطاط.

وأما الباب الثاني الذي وضع له الكاتب عنوان: " **المستقبل** " واحتل مساحة كبرى من الكتاب، لكونه يجسد رهان الكاتب على ضرورة استيعاب العملية التغيرية البنائية للمستقبل العربي الإسلامي عبر تحصيل ثمار التجارب التاريخية، و"**الأحداث الإنسانية**" في تفاعلها مع إكراهات الواقع وإمكاناته لاستشراف حقيقة الفكر والفعل المستقبلي الذي يتعين على الأمة أن تشق بهما طريقها إلى النجاح بإذن الله.وفي محاولة منا تلخيص هذا الكتاب : "**شروط النهضة**" لمالك بن نبي تواجهنا عقبات تتلخص حول إشكالية " **الكيف الإجرائي** " لحمل دلالات معاني الكتاب، حذرا من الوقوع في منزلق التسطيح لفكرة الكتاب ورسالته ومضمونه. لذلك سنحاول ما بوسعنا – **عبر خطوات منهجية** – الحفاظ على وحدة النص ومضمونه، وروحه الإستنهاضية للأمة من غفلتها نحو تشييد حضارة ومشروع إسلامي يروم تحقيق هذا الغرض النبيل.

ويمكن أن نجمل هذه الخطوات المنهجية كما يلي:

أولا: الإحتفاظ بالتقسيم الموجود في الكتاب ما أمكن، بما في ذلك العناوين الصغرى المدرجة تحت الباب، مع جمع بعض العناوين المتشابهة في عنوان واحد.

ثانيا: التعبير عن الأفكار بأسلوبي الخاص مع الاحتفاظ بالمصطلحات الجوهرية (الكلمات المفاتيح) التي يوظفها الكاتب.

ثالثا: سرد بعض النصوص والفقرات الجامعة للمعنى المقصود مع توثيقها.

رابعا: حذف الأنشودتين الرمزيتين في كل باب من البابين، نظرا لطابعها الرمزي الإشاري المستعصي على التلخيص.

خامسا: الاستغناء في تلخيصنا عن إيراد الوصية، والمقدمتين للطبعة العربية والفرنسية، كما نتجاوز ذكر المسارد بأنواعها.

سادسا: نعتمد فهرسة جديدة للموضوعات، تأخذ بعين الاعتبار الخطوات السابقة.

الباب الأول: الحاضر والتاريخ

دورة الأبطال:

ينفي مالك إمكانية التوجيه الملحمي للشعوب، باعتبار الملحمة فجوة للتسلية وإشباعا للخيال، لأن جهد أبطال الملاحم لا يتجاوز الطموح واكتساب المجد ... فنجد أن الدافع الديني والشرف هو الذي يحدد باعث الكفاح الإنساني ومسيرته، حيث نجده يتكلم عن الدور البطولي للشعوب المسلمة في كسر العقلية الاستعمارية، وأوضح جوهر مشكلتها فقال : " **إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني حضارات أو تهدمها وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضين والحضارات المستقبلة إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض، إلى آخر وريث له فيها، ويا لها من سلسلة من نور! تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة في خطواتها المتصلة في سبيل الرقي والتقدم** " وهذا ما تجسده تجربة الجزائر لعام 1830 م، وهي تجربة جسدت بعدين اثنين: الأول تمثل في التسلي بذكر الأبطال الخالدين، كالوثبة الرائعة للأمير عبد القادر – الذي اختفى بسرعة كحلم طواه النوم – ومن سار على دربه كالمجاهد عبد الكريم الخطابي، وجمال الدين الأفغاني " **فمن عادة التاريخ ألا يلتفت للأمم التي تغط في نومها** ". والثاني هو ذلك الرضوخ للواقع الأليم واقع تفرضه سلطة جبار عنيد، ومن هنا كانت الرابطة القبلية لهؤلاء الأبطال الصيغة المثلى لتحقيق الوحدة التي تكفل حمل الرسالة.

إلا أن مالك يرى أن هذه الرابطة ليست كافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالته التاريخية وإن استطاعت أن تنتج الرموز والبطولات اللحظية أو بتعبير آخر: " **البطولات المجردة** " ثم يبرهن على أن الإسلام بما انطوى عليه من قوة روحية، ساهمت هذه الأخيرة في خلود القبائل العربية البربرية لا في البقاء وحده، من هنا يمكن أن نتساءل عن مصير القبائل الأمريكية قبل كريستوف كولومب التي انحلت وذابت في بوتقة المستعمر وتقمصت شخصيته.

دور السياسة والفكرة:

تحت هذا العنوان، يتساءل مالك قائلا: "**كيف تسهم الكلمة في خلق الظاهرة الاجتماعية؟ وكيف تستقر الكلمة في سويداء القلب لتحمل الإنسان مبدأ وغاية يستطيع من خلالهما قلب الأوضاع العالمية؟**" إنها التساؤلات التي جسدت" **لفكرة النهوض**" عند جمال الدين، والتي سرعان ما حركت الضمير الإسلامي وغيرت ما بنفسه، حيث الأسلوب الجديد في حياة كلها حركة ويقظة.

لقد كان لظهور " **الفكرة الإصلاحية**" حوالي سنة 1925 م قدرة في تحليل المشكلة الجزائرية، هذه المرة بحاسة اجتماعية قوية، وعودة لحياة " **يستأنف فيه كل شعب رسالته ويبدأ تاريخه** " ثم يتعرض مالك لمسألة مهمة وهي العلاقة التي تجمع الفكرة بالسياسة، فيرى أن أغلب المصلحين كانوا أفرادا في زمانهم، وأن صيحاتهم كانت تغتال قبل أن تصل إلى الآذان، كما وقع للشيخ " **صالح بن مهنا**" الذي كاد صوته أن يوقظ أهل قسطنطينة حوالي سنة 1898 م، فعملت الحكومة على معاقبة أمثاله من " **مقلقي النوم العام**"، ورغم هذه المحاولات لإقبار الصوت الحر ... إلا أن سنة 1922م، ستعرف الجزائر انبعاث نهار جديد مستمد من صوت جمال الدين ذي القوة الإرادية، ليبدأ الشعب الجزائري المخدر المفقر المهمش، في التحرك واليقظة الجميلة المباركة، وهكذا سيستيقظ ذلك المعنى الجماعي على أنغام كلمات : بن باديس بعكس ما كان يقع في الماضي، يقول مالك عنه:" **أما الماضي فقد كانت البطولات تتمثل في جرأة فرد لا في ثورة شعب، وفي قوة رجل لا في تكالف مجتمع، فلم تكن حوادثها تاريخا بل كانت قصصا ممتعة، ولم تكن صيحاتها صيحة شعب بأكمله، وإنما كانت مناجاة ضمير لصاحبه، لا يصل صداه إلى الضمائر الأخرى،**

فيوقظها من نومها العميق" ثم يفسر مالك كيف استطاعت الانتهازية السياسية أن تعرف منحى الإصلاح عند جمعية العلماء الجزائريين، حيث سيتحول تنبيهم للتفكير غير المنهجي إلى انتهازية خطيرة عندما قبلوا بالسير في القافلة السياسية التي ذهبت إلى باريس عام 1936م، ويرجعوا بإخفاق المؤتمر الجزائري وتشتيت جمعيتهم...فانقلبت الحركة الإصلاحية على عقبها.

دور الوثنية:

يرى مالك أن الوثنية من المنظور الإسلامي جاهلية لأن الجهل في حقيقته وثنية لأنه لا يغرس الأفكار بل ينصب الأصنام كما هو حال الدراويش وأصحاب الزوايا عندما يربطون الناس بالحروز ذات الخوارق... وهو حال أهل الزردة من المريدين الخاملين الذين ستتخلص منهم الجماهير عند سطوع نور الفكرة الإصلاحية بعد أن ظلوا طوال خمسة قرون يرقصون على دقات البنادير ويبتلعون العقارب و المسامير مع الخرافات والأوهام، وظنت الحركة الإصلاحية أنها انتصرت يوم افتتاح المؤتمر الجزائري سنة 1936م، إلا أن فكرة الزوايا كانت على استعداد للعودة لكن هذه المرة في طابع سياسي آخر، وأصنام مزوقة بأسماء جديدة، فأوراق الحروز التي نبذها الشعب رجعت إليهم باسم أوراق الانتخابات، يقول مالك ملخصا هذه الفكرة:" **لقد كان من واجبنا أن ننتبه فلا نلدغ من جحر مرتين، غير أننا لم نكن في الواقع قد تخلصنا من الأسلوب الخرافي، ذلك الأسلوب الطفولي الذي نتجت عنه قصة ألف ليلة وليلة، تلك القصة التي استطبنا مذاقها في عصور انحطاطنا**..."، وهذا ما يفسر الخطأ الذي وقع فيه علماء الإصلاح والذي كان "قصدا بريئا وزلة نزيهة"، قادهم نحو السراب السياسي، لأن الحكومة الاستعمارية كانت هي السبب الخارجي لتلك الخطوة المشؤومة مع أقسام الوسط بالقابلية للاستعمار، فلولا هذه القابلية لما كانت هنالك حكومة استعمارية، إذن فالاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل من نفوسنا ذاتها التي تقبلت ذل الاستعمار، فأساس النصر إذن مرتبط بقيمة الشعب وقوته الذاتية التي تكسر عوامل الاستعمار كيفما كانت سلطته وجبروته. وإذا كنا نعلم أن الظاهرة السياسية تقوم على قوانين أساسية باعتبار الصلة التي تجمع الحكومة بالوسط الاجتماعي، فينبغي على الحكومة أن تتخذ أذكى الوسائل لمسايرة التغيرات الاجتماعية وإلا انعدم بقاؤها وسقطت في الهاوية، لأنها اعتمدت في سياستها التدبيرية العاطفة بدل قواعد الاجتماع وأسسه.

إن القاعدة التي اعتمدها علماء الإصلاح منهاجا يسيرون عليه قول الله تعالى:﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ فتغيير الواقع الاجتماعي هنا مرتبط بالسلوك النفسي، بمعنى: "**غير نفسك تغير التاريخ**"، فنجد أن حديث الإصلاح اخترق المسجد والمدرسة والمنزل...وحتى الأدب الجزائري من أجل البعث الفكري والروحي... وقيام الحركات الهدف منها إزالة كل منكر لايقره الذوق العام، هذا النفس الجديد في هذه الحياة أقلق كثيرا من الذين كانت مصالحهم قائمة بسباتنا، إلى أن جاءت سنة 1936م فضللنا الطريق إلى وجهة السراب السياسي، يقول مالك موضحا هذه الوجهة الخداعة: " **لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها أيضا من نقائص تعتري كل شعب نائم. وبدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ سنة 1936م سوقا للانتخابات**".

يختتم مالك الباب الأول من هذا الكتاب بخلاصة مفادها أن هذا التقهقر والعودة إلى الظلام، وبعثرة الجهود، وتحطيم المساعي... التي أعطت الخط الأخضر للاستعمار لبتر المؤتمر وتشتيت العلماء، راجع بالأساس إلى المشكلة العقلية، وتبنينا لرؤية غامضة جعلتنا ننظر للأشياء بعين فيها حول.

الباب الثاني: المستقبل

من التكديس إلى البناء:

استسلمت الأمة للمرض الذي أنهكها سنين طوال دون أن تعرف حقيقته، أو أن تكون لها فكرة سليمة عنه، فاشتغلت بالأعراض الجانبية وبتوصيف الجزأ والنظرة العلاجية الأحادية، يقول مالك موضحا ذلك:" **ففي الوثائق نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته، فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ...إلخ...على حين أن هذا المرض لا يتناول في الحقيقة المرض، بل يتحدث عن أعراضه. وقد نتج عن هذا أنهم منذ خمسين عاما لا يعالجون المرض، وإنما يعالجون الأعراض.**"

إذن فالحالة المرضية التي عاشتها الأمة طرحت طريقين اثنين: إما القضاء على المرض وإما إعدام المريض، من هنا كان دخول الأمة للصيدلة قصد علاج أمراضها دون إدراك لعلة مرضها على وجه التحديد خطورة وذهنية تنضاف للحالة المرضية التي تعاني منها الأمة، هنا يطرح السؤال: من أي مرض تريد الأمة الشفاء؟ وبأي دواء؟ أمراضنا متعددة متداخلة: الجهل، الفقر، الاستعمار... وهو ما جعل جهود الاستشفاء موزعة متباينة: كبناء المدارس والمصانع والمطالبة بالاستقلال... نجد أن مالك هنا اجتهد في مناقشة فكرة مهمة تمثلت في قضية" **إنشاء الحضارة**" التي تستحيل بالاعتماد فقط على شراء منتجاتها كما وكيفا، فمن ناحية الكيف سيكون شراؤنا لمنتجات حضارة ما. اقتباس وتحصيل للهيكل والجسد بلا روح، أما من ناحية الكم، فإن هذا الشراء للمنتجات سيوقعنا في: "**استحالة مزدوجة**"

<u>الأولى:</u> الحضارة الشيئية أي:(**تشيء الحضارة**).

<u>والثانية:</u> تكديس الأشياء الحضارية. والحقيقة أن البحث عن حاجة الأمة في التركيب السريع والحديث للحضارة في زمن معين يدعونا إلى استحضار هذه الصيغة التحليلية الجامعة.

<u>ناتج حضاري</u> = <u>إنسان</u> + <u>تراب</u> + <u>وقت</u>

هذه المكونات الثلاثة لا تعمل منفردة ولا مجتمعة إلا بوجود "مركب الحضارة" وهو العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، ومن هذه الصيغة نستشف العناوين الكبرى لمشكلة الحضارة وهي كالتالي:

1. **مشكلة الإنسان**
2. **مشكلة التراب**
3. **مشكلة الوقت.**

الدورة الخالدة:

يعتبر مالك أن جهلنا بالمنطق التاريخي – الذي من خلاله ندرك أوضاعنا ونسهم في حل مشكلاتنا الاجتماعية- أكبر منزلق للأمة جر عليها كوارث الانحطاط والفتور، ومما ضاعف الداء، ذاك الاستيراد للحلول والمناهج من الشرق والغرب والتفكير خارج شروط الأمة دون مراعاة للمرحلة: أي في غياب تام "**لفقه الواقع**". هذا ما يدفعنا لتأمل قوله تعالى :﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ باعتبار الآية مبدأ قرآنيا، يرى مالك أن فهمها–أي الآية– لا يرتبط بالدائرة الإيمانية للفرد بل يتعداه إلى التأثير

في التاريخ. وهذا ما دفعنا لطرح سؤالين عريضين قصد تحليل هذه الفكرة، **الأول**: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟ **والثاني**: هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق المبدأ في حالتها الراهنة؟ يبحث مالك – في إطار جوابه عن السؤال الأول- عن الشرط الأول وهو مطابقة التاريخ للمبدأ القرآني، فيقارن بين نشوء الحضارتين الإسلامية والمسيحية من خلال تبيان أوجه الاشتراك و الاختلاف، فيؤكد على أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية والتي تظهر في صورة وحي يهبط من السماء، ليكون للناس شرعة ومنهاجا، ومثال ذلك ما عرفته جزيرة العرب قبل نزول القرآن وبعده، وكيف تحول أناسها البسطاء ذووا الحياة الراكدة – عندما مستهم شرارة الروح – إلى دعاة إسلاميين فاعلين يقظين، تمثلت فيهم خلاصة الحضارة الجديدة، يقول مبرهنا على فكرته:" من هنا ندرك سر دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى التأمل فيما مضى من سير الأمم، وذلك ليدركوا كيف تتركب الكتلة المخصبة من الإنسان والتراب والوقت"، فهناك إذن سر كوني يركب العناصر الثلاثة ليبعثها قوة فاعلة في التاريخ ، وهكذا ينتقل بنا مالك إلى الكلام حول **الواقعة التي حولت مجرى التاريخ** واقعة صفين فيستدرك على المؤرخين إغفالهم لنتيجتها الكبرى المتمثلة في دخول الأمة طور القيصرية، واشتغالهم بالظواهر الثانوية كنشوء التشيع في العالم الإسلامي، رغم أن الأحاديث النبوية واضحة في تفسير هذا المعنى، كقوله صلى الله عليه وسلم:" **الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك**" رواه الإمام أحمد، وبهذا تكون الفتوحات الإسلامية والنهضة العلمية والفكرية لرجالات علماء المسلمين نتائج لما تبقى للأمة من مخزون روحي يلخص لنا مالك هذه الفقرة قائلا:" ومن هنا نستطيع أن نقرر أن المدنيات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية، إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل".

فيبسط بذلك القول لنقطة كانت محط خلاف بين المفكرين، وهي مسألة ما إذا كانت " **الشيوعية حضارة**" فعلا رغم أنها غير متصلة بعالم الروح، هنا يضطر مالك إلى اعتبار الشيوعية **(أزمة)** للحضارة المسيحية ليس إلا، لأن الشيوعية النظرية ما هي إلا فكرة ماركس، خلافا للشيوعية الواقعية التي وجدت في مختلف العصور، وهي عبارة عن قوى داخلية تدفع المؤمنين للنشاط والتنافس في العمل. أما في سياق حديثه عن الشرط الثاني وهو إمكانية تطبيق المبدأ القرآني الآن، فيرى أن التردد في الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب جهل كبير بالإسلام وبحتمية تأثير الدين في الكون، لأن جوهر الدين مؤثر صالح لكل زمن ومكان.

العدة الدائمة:

يقصد مالك بالعدة الدائمة العناصر الثلاثة الأولية للتكوين الحضاري: **الإنسان (المتجسد في رجل فطرة) + التراب + الوقت**. وما عداها مكتسبات حضارية يمكن الاستغناء عنها في زمن مرحلة ما، لأن المكتسب غير كاف في حالة غياب القيم الخالدة التي هي روح الحضارة، وهذا ما جعلنا نطرح التساؤل التالي: ما هو أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة؟ انتهج مالك في جوابه عن هذا السؤال –بدل التفسير التاريخي- تحليلا عميقا من خلال طرحه للدور الإيجابي الفعال للفكرة الدينية سواء في تحديدها لشروط سلوك الفرد، أو كيفية تنظيم غرائزه تنظيما عضويا حفاظا على العلاقة الوظيفية لبناء الحضارة. وكل تحليل يغفل هذين الجانبين سيقع لا محالة في خطأ منهجي كما وقع مع ماركس ومدرسته يقول مالك:" وهكذا نجد في التفسير الماركسي للوقائع التاريخية ثغرة أحدثها التحليل المفرط في المنهجية لهذه الوقائع، ذلك التحليل الذي يتخذ نقطة انطلاق، من حتمية مادية أي من عملية ميكانيكية لاإرادية لتخطيط الحضارة". في حين نجد أن جل المناهج التفسيرية التي جاءت من بعد لم تستطيع تفسير الظاهرة الإسلامية مثلا بموازة ظروفها النفسية والزمنية كما هو حال "**نظرية الروح الكلي**" و"**نظرية توينبي**"، وقد حاول مالك تجسيد هذا البعد النفسي الزمني في صورة تخطيطية توضح الأطوار التاريخية لنموذج الحضارة الإسلامية التي تبرز مثلا طوري: النهضة والأفول في تواز معين، يتوسط هنا طور اكتمال معين هو طور انتشار الحضارة وتوسعها:

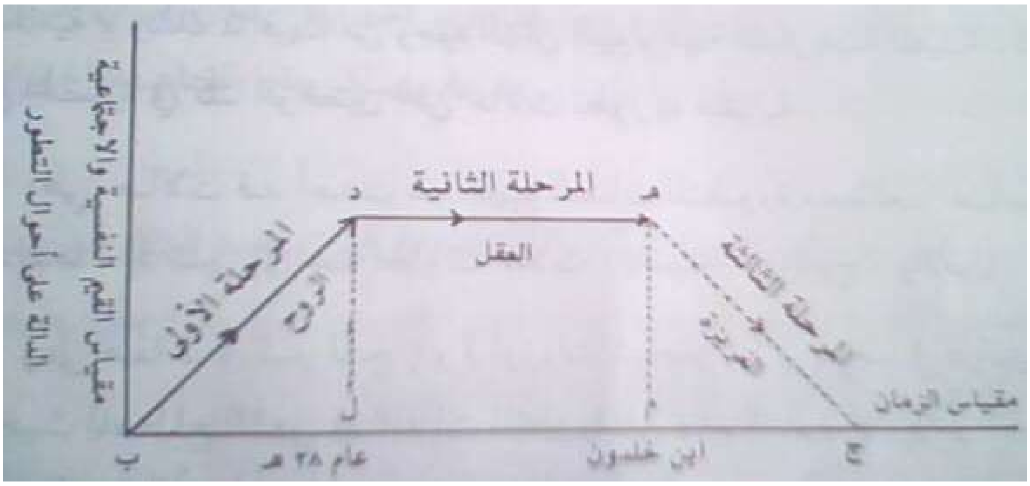

هناك عاملان ضروريان يبرزان في تناولنا للحضارة الإسلامية بشكل قوي ملفت وهما: الفكرة الإسلامية والإنسان المسلم: "السند المحسوس لهذه الفكرة" كما يعبر مالك.

فالطور الأول مثلا، والذي يعرف عند المؤرخين المسلمين بالفطرة، لاينفي العقل والغرائز بل يعمل على تنظيمها في علاقة وظيفية وفق الفكرة الدينية، وهو ما جسد صيحة الروح في ذاتية بلال– وهو تحت قهر التعذيب –كما هو حال المرأة الزانية في طلبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم إقامة حد الزنى عليها.

أما الطور الثاني، الذي سميناه العقل فقد تركز نتيجة لتوسع المجتمع الوليد، هذا العقل لايملك سيطرة الروح على الغرائز أبدا، ولذلك انفضح في العهد الأموي حيث أن الروح بدأت تفقد نفوذها على الغرائز بالتدرج فتضعف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الأفراد، وتعديل سلوكهم. يقول مالك:" **فدورة الحضارة إذن، تتم على المنوال إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين (zthos) على حد قول (كسرلنج) كما أنها تنتهي عندما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة الجماح"**

العنصر الأول: الإنسان.

في حديثه على العنصر الأول الذي هو الإنسان يرى مالك أن كل إنسان يعيش مشاكله المشبعة بطابع بيئته، ومرحلته التاريخية التي يعيشها كما هو حال بلد أوربي كبلجيكا إذا ما قورن بإحدى البلاد الإسلامية، فالأول مشكلته في الحركة المضطربة المتعلقة بحاجات غير مشبعة، أما الثانية – البلاد الإسلامية – مشكلتها في الركود والخمول التام لا الحركة! وهذا ما يجعلنا نقرر بأن الأزمة نابعة بالأساس من الذات الإنسانية لاغير، وعليه فالحل كما صاغه مالك بقوله:" فالمسألة هي أنه يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى" ص 82، هذا الرجل الذي يمشي في التاريخ يؤثر في مجتمعه بالأبعاد الثلاثة بالفكر والعمل والمال هو ما يحتم عليه ضرورة امتلاك "**فكرة التوجيه**" التي يعرفها مالك قائلا :" هي قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف" من خلال فكرة توجيه التي سنبسط القول فيها تحليلا ومناقشة معتمدين التقسيم التالي:

أولا: توجيه الثقافة

ثانيا: توجيه العمل

ثالثا: توجيه رأس المال.

توجيه الثقافة:

يحاول مالك هنا صياغة عملية توجيه مفهوم الثقافة- باعتبارها من الأشياء الإنسانية الهامة التي تؤسس لفكرة النهضة- وذلك عبر استحضار الحالة الراهنة والمصيرية، كخطوة تأسيسية تروم تصفية المفهوم من كوادر الماضي وأزماته، وإيصاله ب"**خمائر المصير وجذور المستقبل**" بآلية" **فكر جديد**" كما عبر مالك، ثم يعرض مالك نظرتين أثرتا على الثقافة الغربية إما باعتماد "**الأساس الفكري**" لتصفية الثقافة من فكرة إسلامية، مثلا مافعله **(توماس الإيكويني)** أو"**بالتحديد الإيجابي**" الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي ومنهجها التجريبي كما نجد ذلك عند(ديكارت).

لقد قامت الحضارة الإسلامية بعملية التحديد في شقيه السلبي والإيجابي، تمثل السلبي في فشل فكرة الإصلاح وروحه، عند اصطدامها بالدوائر الأزهرية والزيتونية نظرا لعمق أزمة الإنحطاط في ذواتنا، أما التحديد الإيجابي فرغم كونه غامضا غير محدد إلا أن مقصوده هو محاولة دعم الثقافة بعناصر جوهرية أربعة كما أوردها مالك وهي:

1. **الدستور الخلقي**.
2. **الذوق الجمالي**.
3. **المنطق العملي**.
4. **الصناعة بتعبير بن خلدون**.

ثم يفسر مالك الخلط الشنيع الذي طال كلمتي**(ثقافة)** و**(علم)** فالثقافة عند الغرب :**(فلسفة الانسان)** أما في البلاد الاشتراكية حيث غلبة الطابع الماركسي فهي تعني:**(فلسفة المجتمع)** والمقياس الذى يتضح به الفرق بين الثقافة والعلم هو أن الثقافة تغلب عليه النظرية السلوكية بخلاف العلم المرتبط بالنظرية المعرفية، وبالمثال أوضح مالك بأن التماثل أو الإختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لاعن العلم، وبهذا اعتمد صياغة تعريف شامل للثقافة يجمع بين فلسفة الإنسان وفلسفة المجتع فقال: "فالثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الإجتماعية التي يلقاها الفرد مند ولادته، كرأسمال أولي في الوسط الذى ولد فيه والثقافة على هذا هي المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته" والحقيقة هو أن هناك عقبة تقف في وجه عملية التطهير لعوامل انحطاطنا، تجسدت في التحريف الذى طال مفهوم الثقافة فجعل في صفوص شعبنا الجاهل الأمي الحرفيين **(المتعالمين)**و**(حاملي اللافتات العلمية)** إذ هو مرض يصعب مداواته ولايفيد معه التعليم، يقول مالك:"إنه لمن أولويات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نحددها كعامل تاريخي لكي نفهمها، ثم كنظام تربوي تطبيقي لنشرها بين طبقات المجتمع"ص:92. ثم يختتم مالك فكرته بالتدقيق في معنى الثقافة ذات المدلول الواسع، فعلى المستوى التاريخي يمكن اعتبار الثقافة وسط تتشكل فيه جميع الخصائص الحضارية إنها كتلة من العادات والعبقريات والأذواق والعواطف... تجمع ضروب التفكير والتنوع الإجتماعي في الملحمة الإنسانية، أما على المستوى التربوي: فالثقافة تتدخل في شؤون الفرد لبناء المجتمع، ومعالجة مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير، وقد مثل مالك لوظيفة الثقافة بوظيفة الدم في الجسم الإنساني. يقول مالك في ص:93" وفي هذا المركب الإجتماعي للثقافة ينحصر برنامجها التربوي وهو يتألف من عناصر أربعة، يتخد منها الشعب دستورًا لحياته المثقفة:

1. عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الإجتماعية.
2. عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.
3. منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

4 ـ الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو (الصناعة) حسب تعبير ابن خلدون.

التوجيه الأخلاقي:

إذا نظرنا إلى الأخلاق من الناحية الاجتماعية نجدها تستمد روحها ومبادئها من البعد الغيبي السماوي، وهو ما يجعل الأخلاق ركيزة أساسية في ربط الأفراد بعضهم ببعض برسم المجتمع وتوليد الحضارة، من هذه الفكرة نستخلص أن أي مشروع مجتمعي إلا وله أصل ديني عند الرجوع إلى جذوره التاريخية، والأصول التي كونت فكرته، ويمثل مالك لذلك بـ"**جمعية حضانة الأطفال في فرنسا**" ذات الأصل المسيحي.

ثم إن الناظر في الصيرورة المجتمعية التاريخية التي قامت عليها المدنية الغربية، سيجعلنا نجتنب الخطأ المنطقي المتمثل في تلك النظرة الأنية للأشياء في معزل عن التطور التاريخي الذي أوصلها إلى مظهرها الجديد كما هو حال"**جهاز الراديو**" إذا ما استحضرنا أثر القيم المسيحية في بنائه بموازاة آثار العلاقات الإجتماعية التي وحدت جهودا مختلفة لذاك.

التوجيه الجمالي:

تحدث مالك هنا عن أهمية الجمال الذي يطبع فكر الأفراد وعملهم ويؤثر في المجتمع بحجم مستوى ذوقهم الجمالي،فإذا ما اعتبرنا "الذوق الجمالي" حلا جزئيا لبعض المشكلات في حياة الإنسان فلا ينبغي التفريط فيه بدعوى الفقر،وقد استدل مالك لتأثير الذوق الجمالي على المجتمع بصورة الطفل الذي يلبس الأسمال البالية، حيث يحمل في المجتمع صورة القبح والتعاسة،لخمود همته ولأن نفسه قد دفنت في أوساخه حتى أفقده ذلك العطف الإنساني، بخلاف ما إذا تحرر من هذه الأوساخ بغسل ثيابه وحلق رأسه والقصد في مشيته ورفع هامته...عندها سيصبح طفلا فقيرا يسعى لقوته، فنجد فيه صورة للفقر والكرامة لا القبح والمهانة. يقول مالك في الصفحة 101:

إن الجمال هو وجه الوطن في هذا العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، و نفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالإحترام نفسه

المنطق العملي:

ويقصد به الكيفية التي تربط العمل بوسائله ومعانيه، قد يطرح سؤال : لماذا المنطق العملي؟

الجواب: لأنه يكون العقل التطبيقي الذي تحتاجه الأمة إلى جانب العقل المجرد المتضخم لديها، إذ "اللافاعلية" التي تطبع أعمالنا وتعبث بأوقاتنا مردها بالأساس، افتقادنا للرابط الذي يربط بين العمل وهدفه والسياسة ووسائلها... من هذا المنظور يرى مالك عند مقارنته بين الرجل الأوربي والرجل المسلم،أن الرجل المسلم ينقصه منطق العمل والحركة.(إذ هو المنطق الذي زكاه القرآن) لامنطق الفكرة والكلام المجرد، يعبر عن ذلك في الصفحة 103 قائلا :"من هنا يأتي عقمنا الاجتماعي فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي "

الصناعة:

يعطي مالك للصناعة مفهوما واسعا يشمل كل الفنون والتطبيقات العلومية والمهن والقدرات، فللصناعة نتائج وثمار تعود على الفرد والمجتمع إن نحن أحسنا توجيهها الفني الذي يراعي حاجيات البلاد. وصراحة فكل ما تعلمناه في المدارس الرسمية وغير الرسمية، وما تعدنا به السياسات الانتخابية لا نعول عليه فما هو إلا تعالم وغرور، وإنما المعول عليه بعد الله عز وجل هو أن نسخر جميع إمكانياتنا البسيطة في "التحديد الثقافي" وتكوين القيادة التي نحتاج إليها الآن.

المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي في بناء الحضارة:

يبحث مالك تحت هذا العنوان العلاقة التي تربط المبدأ الأخلاقي بالذوق الجمالي في قضية بناء الحضارة، حيث يرى أن المجتمع ينتج بذورا أخلاقية وجمالية نجدها في عرفه وعاداته وتقاليده وعموما (ثقافته) هذه الثقافة . في صورتها الحية . عبارة عن أجزاء متماسكة ومترابطة فيما بينها بروابط داخلية، تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأذواقه وتاريخه، وبهذا صاغ مالك هذه العلاقة في الصورة الجبرية التالية : **مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة** .

وهذا ما أبرز نموذجين داخل المجتمع، نموذج يغلب النشاط الأخلاقي وآخر يميل إلى الدوافع الجمالية، فهذا ليس مجرد اختلاف شكلي فحسب بل له نتائج تاريخية ذات أهمية كبيرة، مثال ذلك : التناقض الجذري في مسألة التصوير وتصوير المرأة العارية عند كل من المجتمعين (الغربي والإسلامي) يفسر مالك منبع هذا الإختلاف فيقول :"والاختلاف هذا يعود إلى الأصول البعيدة، فالثقافة الغربية قد ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني الروماني، أما الثقافة الإسلامية فقد ورثت الشغف (بالحقيقة) من بين ميزات الفكر السامي ".ص 110

إن أي خلل يحدث في العلاقات الأخلاقية الجمالية يؤدي إلى خلل في التوازن الحضاري المنشود، ويمثل لذلك بمثالين : الأول هو الاستعمار (**كظاهرة ثقافية**) أدت إلى(**فضيحة حمراء**)، والثاني: مشايخ الطرقية في الزوايا التي انتهت إلى (**فضيحة صامتة**) ."وعليه فإن كل ثقافة تتضمن علاقة (**مبدأ أخلاقي . ذوق جمالي**) تكون ذات دلالة عن نوع عبقرية مجتمع معين وهي ليست تطبع إنتاجه الأدبي بطابع خاص وإنما تحدد اتجاهه في التاريخ أيضا"

ثانيا: توجيه العمل

يرى مالك أن حقيقة العمل تنبع من العناصر الثلاثة المكونة للحضارة لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية، ويستدل على ذلك بمشهد بناء المسلمين لمسجدهم الأول بالمدينة رغم بساطته حيث دروس العمل. والعمل المقصود هنا هو العمل التربوي المنهجي لا الكسبي، لأن العمل الكسبي ما هو إلا تتويج لتطور حضارة رفعت شعار (**كل جهد يستحق أجرا**) فتوجيه العمل عند مالك:"هو تأليف كل الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة، ومن هذه البيئة يشتق العمل معناه الآخر:(**كسب العيش لكل فرد**). فتنكسر العطالة ويسود المجتمع كرامة ورفاهية.

ثالثا: توجيه رأس المال

مهد مالك لموقف كارل ماركس من الرأس مال والرأسمالية من خلال آلية تحليله للمشكلات التي عانت منها أروبا، فاستشف بأن القضية الإسلامية ذات خصوصية وطابع مختلف تمام الاختلاف عن الصورة التي كانت عليها أروبا، ولذلك اقتضت دراسة خاصة لمشكلاتها وهو ما سيجعل تحديدنا لرأس المال باعتباره آلة اجتماعية تسرع وتيرة التقدم المادي، وليس كما عالجها ماركس من أنها آلة سياسية في يد فئة رأسمالية، وهذا ما يدعونا للحذر من الخلط بين الثروة و رأس المال الذي وقع فيه الكثيرون فمصطلح الثروة بالمعنى الاجتماعي يقتضي فهمنا له استحضار الوجهتين:

الأولى تتمثل في معرفة المركز الاجتماعي لصاحبها: فلاح/ صاحب ماشية.. **والثانية** هي معرفة كيفية استعمال صاحبها لها :حرفة محلية/مستقرة/متحركة..يقول مالك في هذا الصدد:"فالثروة تلقب بلقب صاحبها، أما رأس المال فإنه ينفصل اسما عن صاحبه، ويصبح قوة مالية مجردة، وهذا شيء معروف عند الاقتصاديين"ص118.

وقد بدأ التكوين الرأسمالي مع ظهور الصناعات الميكانيكية، فرأس المال يقيم شبكة من العلاقات الاقتصادية بين البلدان، ويخلق بذلك حركة ونشاطا، ومن نتائجه في أروبا أنه خلف ظاهرتين اجتماعيتين:

1- طبقة العمال كنتيجة للثورة الصناعية.

2- الاستعمار نتيجة للحاجة إلى التصدير والاستيراد.

يدعوا مالك إلى الاستفادة من التجربة الأوربية في مسألة توجيه رؤوس الأموال وتخطيط الاقتصاد،مع الحذر من منزلقاتها المتمثلة أساسا في الطبقية والاضطرابات الاجتماعية، يقول مالك في ص121:

"لنتخذ من الآن الحيطة حتى تكون أموالنا مطبوعة بطابع الديمقراطية لا بطابع الاقطاعية، فالقضية إنما هي قضية منهاج يحدد لنا تخطيطا مناسبا نبني عليه حياتنا الاقتصادية، ولا يكون في مكان لتركيز رؤوس الأموال في أيد فئة قليلة، تستغل السواد الأعظم من الشعب، بل يجب أن يتوافر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيرا، وبذلك يتم التعادل بين طبقات المجتمع،وتنسجم مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد".

مشكلة المرأة:

نجد أغلب من تناول هذه المشكلة بالبحث من كتاب الشرق والغرب قد أغفلوا خطة الجمع بين الرجل والمرأة، باعتبارها مشكلة فرد داخل المجتمع، إذ الحل السليم لمشكلة المرأة يستدعي عدم عزلها عن دائرة المجتمع. لأن التناول المجزأ لهذه المشكلة أفرز نموذجين من التفكير يجليان الاعتبار الجنسي الغريزي لاغير، فالمرأة عند النموذج الأول مبعدة عن المجتمع، محصورة في سجنها التقليدي بدعوى الحفاظ على الأخلاق، وفي النموذج الثاني من أولئك الذين يطالبون بخروج المرأة في زينة فاتنة كما هو حال دعاة التحرير المتاجرين في حقوقها، بأناشيدهم الشعرية الداعية إلى تقليد نساء أروبا، يقول مالك في ص:125" لقد بدأت المرأة المسلمة التي كانت في زمن قريب تلبس(الملاية)في إفراط، تسلك في سيرها الاجتماعي الطريق الذي رسمته أروبا لنسائها، متخيلة أن في ذلك حلا لمشكلتها الاجتماعية". هذا التقليد الأعمى لم ولن يحل المشكلة، وكل ما فعله هو أنه نقل المرأة من حالة إلى حالة، فنقل بذلك المشكلة من البساطة إلى التعقيد.

في حين سعى مالك الى تسليط الضوء على مجموعة من القضايا المتعلقة بمشكلة المرأة كعملها خارج البيت، ومسألة تعدد الزوجات، و"موضة" التزوج بالأجنبيات لدى شبابنا...فعزى أغلب أسبابها إلى السلبية التي تعتري المرأة نفسها، وغيابها عن المجتمع الذي فسح للأروبية-من حيث لا تشعر هي نفسها-أن تضع طابعها في حياتنا.يقول مالك في الصفحة130:"ومن الواضح أن الأوربية لاتتمتع بهذه الميزة، إلا لأن المرأة عندنا لاتقوم بدورها أحيانا" إذا يستدعي حل مشكلة المرأة "**إجماع**" لا بطريق مسايرة الظروف بل بتسيير الظروف نفسها عبر مؤتمر عام مثلا، تصبح مقرراته دستورا لتطور المرأة في العالم الإسلامي، وبهذا ننتقل من الجانب الفني (**النظري**) إلى تفعيل الجانب الاجتماعي للوصول إلى الوسائل العملية.

مشكلة الزي:

إن الزي يتغير تبعا للظروف المجتمعية، ويتحدد بالنشاط الجديد فاللباس يسهم في إقامة التوازن التربوي الأخلاقي، فله روحه الخاصة به، نجد ذلك في: اللباس الرياضي،لباس العجوز، لباس الحروب(التي كانت تستبدل بعد كل هزيمة، كما فعل ذلك الشعب الياباني عندما أبدل عباءة الحرير(الكيمونو) باللباس الأزرق القطني الذي يناسب عامل الميكانيكا، وأيضا فعلت تركيا الكمالية لما استبدلت طربوش بالقبعة)... يقول مالك عنها:"لقد كانت فكرة مصطفى كمال التي دبرها قنبلة، لكن تأثيرها لم يتم لأن صاحبها لم يفكر في الشروط الأخرى لنهضته".

الفنون الجميلة:

يتناول المفهوم الشاسع للفنون الجميلة كالموسيقى والسينما والغناء وغير ذلك، وله غايتان فهو إما داع إلى الفاضلة، وإما داع إلى الرذيلة حسب الكيفية التي نقرر بها وسائله، فالرقصة مثلا إما أن تكون قصيدة شعرية أو حركة جنسية. ومن هنا يتساءل مالك عن قيمة الموسيقى والسينما في مصر فيرى أن الموسيقى المصرية ليست فنا متصلا بقيم أو بأشياء بل هي فن يتصل بالعدم، إلا في بعض الظروف الاستثنائية الأخيرة، فالمشكل عندنا هو أننا لا نجمع في خدمتنا للفن بين الجهد والعبقرية، كأن الكسل من ميزات الفن الجميل عندنا! يقول مالك في ص 138:" وعلى كل فإننا نحتاج أن نقرن بين الموهبة والقدرة لنحصل على شيء يكون جديدا باسم الفن".

العنصر الثاني: التراب

نتكلم عن التراب من حيث قيمته الاجتماعية، فالتراب في أرض الإسلام على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذي يعيشون عليه، فالأرض الزراعية في الجزائر تراجعت أمام غزو الصحراء وهذه ليست مجرد مشكلة بل هي مأساة دامية، فماذا فعل سكان الأرض أمام هذا الغزو؟ لقد اختاروا حلا سهلا وهو الفرار إلى وجهة أخرى مخلفين تراثا حيويا بدأ في النزيف إنه وضع خطير يقتضي أن نوقف هذا النزيف أولا، وننقذ الشعب من خطر الموت – لتوفير القوت والملبس- ثانيا.

إن التحول الجغرافي من الأرض الخصبة إلى صحراء مجدبة، يؤثر سلبا على النشط الاقتصادي فيتراجع ويندثر فمن حرفة الزراعة إلى رعي الماشية ثم إلى لاشيء... فتخلق بذلك صورة حياة اجتماعية **(نباتية)** راكدة، ويقترب فيها الجو من المناخ القاري الصحراوي، ليؤثر على كيان الفرد لا على مصالحه فقط.

لقد اقترح مالك بعد الانتصار على أنفسنا الخاملة الكسولة حلين اثنين لهذه المأساة: الأولى: تبخير مياه البحار لإنتاج الأمطار الصناعية، والثانية: الانتصار على الرمال الزاحفة بعملية التشجير والغرس. عندها يخضع شعبنا ترابه، ويمهد لحضارته، ولن تخيفه نوائب الزمن بعدها.

العنصر الثالث: الوقت.

يراقب مالك السلوك الزمني لدى أفراد الشعوب العربية الإسلامية في تعاملها مع الوقت،باعتباره عنصرا جوهريا في الحياة لا يقدر بثمن. يقول مالك في ص146:"إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت" فحاجة الأمة ملحة في ترسيخ فكرة الزمن في العقل المسلم بالخضوع لتوقيت دقيق، نعوض به تأخرنا وتقهقرنا ونرفع به من كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي، وشاهد هذا الأمر التجربة التي عاشتها ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، حيث نرى كيف انبعث شعبها من الدمار والموت إلى إنشاء الصناعات الضخمة؟! إنه عامل الزمن وفعالية الأفراد وإيمانهم بالواجب، وتحملهم للمسؤولية، وكفاحهم من أجل الصالح العام.

إنها حقا معجزة اجتماعية!!.

الإستعمار والشعوب المستعمرة

"المعامل الاستعماري":

إن الدراسة الفنية "**للمعامل الاستعماري**" – باعتباره مؤثرا على نهضة البلاد الإسلامية والعربية سلبا وإيجابا- تدفعنا للحديث عن قيمتين جوهرتين لدى الأفراد،الأولى:قيمة طبيعية خام تتمثل في الاستعداد الفطري في استعمال عبقريتنا وترابنا ووقتنا، أما القيمة

الثانية وهي القيمة الصناعية فإنه يكتسبها من وسطه الاجتماعي عبر وسائل و مسيرات مجتمعية، ساهمت في ترقيته وتنمية مواهبه وتهذيبها، ولقد فرضت قضية الاستعمار على حياة الفرد عاملا سلبيا "جبريا" تجلى في الحط من قيمة الأهالي مثلا، كسياسة تهدمية لجوهر الفرد وتنقيص من قيمته الإيجابية، فهذا المعامل يؤثر في جميع أطوار الفرد عندما تشغله بالنكبات، وتضع العراقل في طريقه لتكرس بذلك واقع الاستعمار، ثم إن الحديث عن "المعامل" بلسان السياسة والحقوق والمطالبة في غفلة عن الواجبات، مأساة أخرى تعاني منها البشرية، بخلاف الحديث عن الواجبات الذي يحرز الحقوق كاملة كما فعل ذلك المصلح البرهومي: غاندي.

لقد استلهمت الحضارة الغربية أصولها وروحها الاستعمارية من الحضارة الرومانية —متجاوزة بذلك الحضارة الإسلامية التي تحمل الرسالة الإنسانية للعالم كله — معتمدة بذلك التزوير الشنيع للغربيين في تناول التاريخ، وهذا التزوير مهما كان فلن ينفي الروح القيصرية للعبقرية الرومانية في تصادمها مع الروح الإنسانية للإسلام، إلا أن مالك يرى أن الاستعمار قد بعث العالم الإسلامي من نومه! رغم أنه سلب منه أشياء ثمينة إلا أن في طياته رحمة، الله أعلم بها. ثم إن الاستعمار لا يتصرف في زمن ولا مكان فكيف يستطيع التحكم في عقلية الإنسان، فالمعامل الاستعماري عنصر خداع حتى في نفوس المستعمرين عندما يغريهم باحتلال الشعوب الضعيفة...لأن السلطان السياسي هو الذي يهدم مجتمع الفرد ويزيف قيمته الاجتماعية، فيحتاج إلى إعادة إحياء للقيم الجوهرية الثلاثة: الإنسان والتراب والزمن لتتم بذلك نهضته من جديد.

معامل القابلية للاستعمار

–عرفنا خطورة – " **المعامل الاستعماري في التحريف المنهجي لمعاداة الفرد المستعمر والتضييق على أنشطته وكسر نبوغه وعبقريته لينشئ بذلك "الأهلي"** المغلوب على أمره يوم استأهل ما ترمي إليه المقاصد الاستعمارية فرضي بالدونية والهوان، وهذه المقاصد تتجلى في جهود المستعمر لتكريس الجهل والانحطاط في الأخلاق داخل مجتمعتنا، ليجد منا هذا المستعمر اليد العاملة الرخيصة، والنفوس المريضة القاعدة، ثم هو يريد تشتيت مجتمعنا وتمزيق أفراده شيعا وأحزابا بسياسته الانتخابية الوسخة. يقول مالك في هذا الصدد:" وبذلك تكون العلة مزدوجة، فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه معاملا باطنيا يستجيب للمعامل الخارجي ويحط من كرامتنا بأيدنا ".

وهو ما أكدته تجربة" **الفئة اليهودية**" عندما تغلب أفرادها على بيئتهم ومعوقاتهم الخارجية من اضطهاد وقوانين "**جبرية**" قاسية، وذلك لما استقووا بالتعاون والتعاضد في السراء والضراء على مبدأ واحد: مبدأ (**الجميع للفرد والفرد للجميع**)، فتجاوزوا بذلك ساعات الخطر المتمثلة في الإصابة " **بالعوامل التقليلية** " حينما انتصروا على "**المعوق الداخلي**" ويدعم هذا الطرح قول أحد المصلحين:"**أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم**".

مشكلة التكيف.

يتعرض مالك لمفهوم "**رد الفعل**" الذي تمارسه الشعوب ضد المستعمرين قائلا:" فمن المعلوم أن علم (**البيولوجي**) وعلم الاجتماع يعرفان هذا (**الرد**) بأنه:" **اتجاه الفرد ونزوعه إلى التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه**" ونعلم أيضا أن من قوانين التكيف (غريزة التشبه والإقتداء). فمع فقدان المجتمع لتوازنه ظهرت أشكال جديدة من السلوكات العجيبة والغريبة عن عاداتنا كمحاولة لخلق توازن اجتماعي جديد، يعالج التناقضات المضحكة والمبكية ويمكن أن نجمل بعضها كالتالي:

- تغذي بعض الشباب بثقافة ضيقة تحت أسماء ملمعة من قبيل: الأفكار التحررية...
- تغني بعض الشباب بذكريات الماضي وأمجاده وبطولاته...

- النظرة المملوءة بالحقد المطلية بالرياء كخطب الأعراس الانتخابية والمظاهرات العمومية.
- الشك في كل شيء! وتوهم البعض للمدنية على أنها "معركة اقتصادية" لا غير.
- زعم بعضهم على أن نجاة الشعوب رهين بتحرير النساء وسيادة جو الخمارة...
- هناك من يقنع بحاله فلا يرى شيئا ولا يبحث عن شيء... وكلها وجهات تروم التكيف مع مجرى التاريخ.

يقول مالك مفسرا ذلك: "وإلى هذه الوجهات يعود اختلاف الملابس، وتباين الأذواق وتنافر الآراء، وتباعد الأفراد وأحيانا اصطدام الجهود".

إن دراستنا للحضارة تشترط نظرة شاملة خالية من الشهوات مبرئة من الأوهام والأساطير، كالأسطورة التي تفشت في مجمعاتنا الإسلامية من قبيل "الشيء الوحيد" و"الرجل الوحيد" وهي عقائد سياسية فاسدة، ومن العقائد الوثنية التي تفسد قيم الحضارة والأمم.

خاتمة :

إن المتأمل في المشروع الحضاري النهضوي الذي يدعو إليه مالك بن نبي، في مختلف كتبه، يجده يركز على فكرة أساسية "فكرة القابلية للاستعمار" كآلية للتحليل. تدعم الإستراتيجية البنائية التي تروم تشييد حضارة "نموذجية" "جامعة" وذلك باستحضار المعادلة الحضارية التي تنسجم فيها العناصر الثلاثة:(الإنسان والزمن والتراب) بمركب الحضارة.

لقد اعتمد مالك منهج التشخيص والتوصيف و التحليل للوضع العربي الإسلامي المعقد مع المقارنة بالنموذج الغربي في بعض إنجازاته ،فاعتبر أن مرضنا بالأساس ناتج عن "فقدان الحضارة " وأن علاج إشكالات الأمة وقضاياها يقتضي منا نظرة فاحصة تتناول الحلين معا: الحل الفني و الحل الاجتماعي. ومن هذا المنظور نستشف الطابع العام الذي يحكم تفكير الرجل ـ ذو النزعة الإصلاحية ـ في انتمائه إلى "المدرسة الإصلاحية ".